رحلة أبي العبّاس البوني

(صاحب شمس المعارف الكبرى)

إلى قسنطينة

وخلوته الروحانية فيها

بحث في أصول العمل الروحاني

تأليف : josé guedj

ترجمة المقال : يعقوب دوليبري

رحلة أبي العباس البوني صاحب شمس المعارف من عنّابة (بونة) إلى قسنطينة وخلواته الروحانية في كهوفها ومغاراتها

يصنف دارسون المفكر وعالم السيمياء الجزائري الكبير "أبو العباس أحمد بن علي البوني" (622/520 هجرية)، كأحد رواد فلسفة التصوف في شمال إفريقيا وأشهر المؤلفين في العلوم الخفية وعلوم التنجيم، اشتهر بكونه عميد علم الحروف الذي مهّد لقيام منظومة السمياء الحديثة.

يعدّ أبو العباس البوني أصيل مدينة;بونة; القديمة وكنيتها ;هيبون الجميلة; ذاكرة ولاية عنابة حاليا (800 كلم شرق الجزائر)، وهي منطقة أنجبت الفيلسوف أوغستين (354-430 م) أبو الفكر العصري، أبو الليث البوني، وسيدي إبراهيم بن تومي وهي وجوه تركت بصماتها على المسيرة الثقافية المحلية والدولية.

وفي المرجعيات العريقة للبوني وغزارة مؤلفاته، حيث يحصي ما لا يقلّ عن مائة كتاب نفيس أبرزها شمس المعارف الكبرى

ويحيل إلى أنّه فضلا عن مرجعيات البوني المغاربية فقد ولد بعنّابة أو بونة الجزائرية وتلقى العلم ومارس أولى خلواته الروحانية في كهوف قسنطينة ومغاراتها التي لا تزال اليوم تعرف إقبالا في طقوس الزردة واستحضار ملوك الجن والنشرة وكذلك مرجعياته التي يرفعها لأبي مدين شعيب التلمساني والمشرقية التي تربطه بشيخه المباشر أبي عبد الله شمس الدين الأصفهاني الذي تتصل سلسلته بجابر بن حيان وأبي بكر الرازي الذين اتصلا كلاهما بالتعليم الباطني للإمام جعفر الصادق.

كما يشير محدثنا، إلى أنّ البوني لم يغفل عن ذكر أفلاطون، أرسطو، فيثاغور، أبوقراط، هرمس مثلث العظمة، ذو القرنين فضلا عن المنجمين الكلدانيين، الصابئة والبابليين، ويصرح البوني في كتاباته أنه عثر على مخبأ تحت أهرامات أخميم بأعالي النيل، مليء بالمخطوطات التي تعود لحقبة ما قبل الطوفان والتي يمكن مقايستها مع بردي Rhind المحفوظ بالمتحف البريطاني، وبردي Golenischev المعروف ببردي موسكو والأسطوانة الجلدية وألواح أخميم المرتبطة بكسور عين حورس والمعادلات الخوارزمية المرتبطة بالأشكال الدينية والرموز الغريبة المثيرة للصورة الأكثر عجائبية للرياضيات.

وللإمام أبي العبّاس أحمد بن علي البوني الذي ولد بمدينة عنّابة الجزائرية التي كانت تسمّى "بونة " من العهد الفينيقي ، لهذا الإمام رحلة ، من بونة إلى مدينة قسنطينة ، إلى تونس ، ومنها إلى مصر والعراق وبلاد الحجاز.

فقد انتقل من بونة (عنّابة الجزائرية) إلى مدينة قسنطينة ، حيث درس كذلك وكانت له خلوة في مغاراتها ، وهي المدينة التي تتربّع على مكان عال ، وفيها جسور معلّقة ، ومغارات وكهوف كان يقصدها الروحانيون والزهاد وعلماء الفلك ، وكذلك كان صاحب الشمس فيها ، ففي مغاراتها اختلى واتخذ لنفسه أولى التجارب الروحانية التي جعلته يدرك أن رحلته في الحياة هي رحلة العارف الرباني.

ليس ذلك وفقط ، بل لاتزال في المدينة معالم تحتفظ لخلوات الرجل بآثار ، بل يوجد سند لعلومه بين عارفي مدينتي عنّابة وقسنطينة ، وهذدا يفسّر كثرة العارفين الروحانيين بالمدينتين ، مثل سيدي راشد ، والزواوي وكذلك في عنابة سيدي شاقر لفحل ، وصاحب العناية الباجي .

ونجد عن قدماء فن الفقيرات مديحا خاصا بالبوني أبي العباس ، تقول فيه النساء ، في طبع البدوة ، بعد مديح لقمر لاح والشمس شرقت وضوات ، يقول :

يا بن علي طال غيابك فالخلوات

سيدي احمد ساكن فالفجوج خليّة

مول الشمس بنورها ضوات

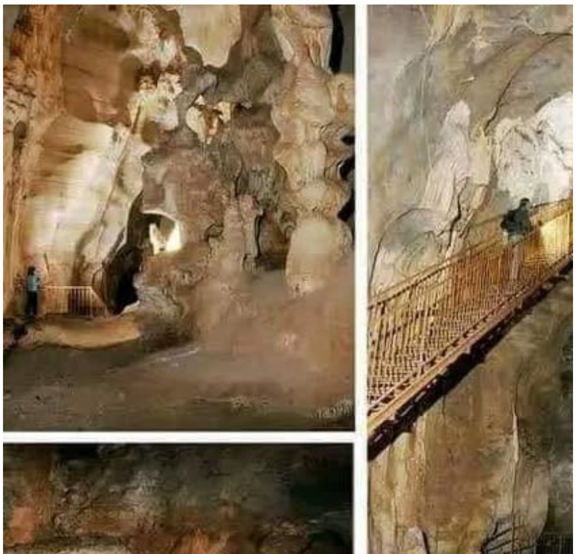
على كل عالم بالاسرار لخفية

جاي من عنابة طالع للقرابة

يا بلعباس تكون وتحن عليّا

وهذا المديح كان يمدح به قدماء نساء الفقيرات عندما تكون طقوس النشرة حاضرا فيها الطلبة والروحانيون ، أو تكون المرأة جدّها أو أبوها طالبا روحانيا .

ونادرا ما نجد النساء يتذكّرن هذا النوع من المديح ، لولا أن كتب عنه الرحالة سليمان ابن تهامي أحمد بن عبد الرحمن الفرادسي الذي زار مدينة قسنطينة في القرن 18 حوالي 1764 م في رحلته .



وفي مثل هذه المغارات كانت للروحانيين الكبار في مدينة قسنطينة معرفة ربّانية ، وكانت مدينة تراثية وملتقى للشيوخ من أمثال البوني و الشيخ المرزوق والشيخ العبّادي صاحب السر الموروث وكذلك العلاقة الأرجاني صاحب كتاب الياقوت في أسرار الجن وبرهوت ، ومن خلال هذه الأماكن ، نجد الموروث الشعبي الذي تعلّق بملوك الجن (الميمون ، الأحمر ...) في مدينة قسنطينة عبر أعمال النشرة التي يقيمها الروحانيون عبر ليلة الوصفان / الديوان أو Gnawa وكذلك طقوس إحيائها من خلال الفقيرات وأهل القصبة مثل الطيبية والعمارية وكذلك الجيلالية القادرية .



وعاد إلى مدينة عنّابة / بونة حيث اتّخذ من مكان راس الحمراء خلوة له كذلك ، ولهذا نجد طابعا وأجواء روحانية كبيرة في أماكن في قسنطينة ، وكذلك في عنّابة وخاصة رأس الحمراء ، وذلك لوجود رابط روحاني منذ صاحب شمس المعارف الكبرى ، وقد ذكر أحد الباحثين الفرنسيين سنة 1890م daubré messferdi، أنّ رجالا ونساء في قسنطينة كانوا يقيمون طقوسا روحانية للاحتفاء بالملوك ملوك الجن ، خاصة في قسنطينة (ميمون) وكذلك في عنابة البحراوي أي ميمون البحراوي أو الساكن في المياء والبحار ، ويستعينون بطائفة من الطلبة العارفين بميراث البرني كذلك .



مزار "راس الحمرا" في عنّابة حيث تجري طقوس الزيارة و العربون أو النَّشْرة وسط اجواء بحرية روحية

وقد كانت من خلوات صاحب كتاب شمس المعارف الكبرى حيث كان يتخذها خلوة روحانية ، وكان كذلك في مغارات مدينة قسنطينة في الجزائر ، لأنه تنقل بين الجزائر وتونس ومصر والعراق والحــــجاز

وماتزال رحلة أبي العباس البوني بين مدن الجزائر الشرقيّة مطويّة في مخطوطاته ، حيث يذكر تنقّله بين عنابة وقسنطينة وبسكرة ثم انتقاله إلى تونس وانتقل كذلك بين مدنها العريقة ، إلى أن رحل إلى مصر ومنها إلى العراق وبلاد فارس ، ومنها عاد إلى الحجاز .

ولكنّ الثابث أنّ الرجل عاش فترة اكتشافاته الروحانية الأولى في عنّابة (بونة) وفي قسنطينة ، حيث اتّخذ فيهما مجموعة من الخلوات ، في مغارات قسنطينة ، وفي رأس الحمراء ، وذلك لأنّ قسنيطنة كانت منارة علميّة في الشرق الجزائري ، وعليه فلا يمكن لعلم مثل أبي العباس البوني أن يتجاوزها ، ولا يشدّ إليه الرحال ، خاصة ونحن نجد فيها محطّا لعديد الطرق الصوفية ، وكذلك مدينة عنابة في رأس الحمراء التي لا تزال ليوم الناس هذا مزارا تقام فيه طقوس روحانية شعبيّة ، حيث يعتقد الناس أن جنّيات تسكن المكان ، وأنّ الجن ينصبون محفلا في رأس الحمراء ،

لأنّها خلوة روحانية كبرى ، تجلت فيها حقائق الشمس الكبرى وتجلياتها الأولى ، على العالم البوني .



مزار "راس الحمرا " في ولاية عنّابة الجزائريّة ، كانت تسمّى بونة ، وفيها ولد الإمام البوني صاحب شمس المعارف الكبرى